# بسم الله الرحمن الرحيم
## ربِّ يسّر

كتاب **قوت القلوب للمكّى** من أمهات الكتب فى التصوف الإسلامى، ويعتبر مع كتاب **إحياء علوم الدين للإمام الغزالى** من أمهات كتب التصوف والتعليم الصوفى التى لا يُستغنى عنها فى تربية المريدين وتثقيفهم ثقافة إسلامية، ولا يضاهيهما فى ذلك كتاب آخر. والكتابان نبع ثرّ للفكر الصوفى، ويضمان أقوالاً لمشاهير المتصوفة وأعلام التصوف. واعتبر البعض التشابه بينهما دليلاً على أن الغزالى قد استبطن كتاب القوت للمكى واستنبط منه كتابه الإحياء. ومن هؤلاء **الدكتور زكى مبارك والدكتور عبد الرحمن بدوى**. وفى كتابه عن رابعة العدوية يذهب الدكتور بدوى إلى أن الغزالى فى الإحياء «لم يفعل إلاّ أن نقل مُلخصاً كلام صاحب القوت، بحروفه فى أغلب فصول كتابه الإحياء، فى الموضوعات المشتركة بينه وبين كتاب القوت». ويزيد الدكتور بدوى فيقول إن هذا النقل «يعطينا شاهداً آخر على مقدار ما لدى الغزالى من أصالة!!»، فكأنه يتهم الغزالى صراحةً بالنقل عن المكى، ويطعن فى أصالته!!

ويستشهد الدكتور بدوى بما ذكره المرتضى الزبيدى فى كتابه **إتْحاف السادة المتقين فى شرح إحياء علوم الدين للغزالى**، من أن الغزالى قد أورد تفسير المكى لبعض أقوال الصوفية، ومنهم رابعة العدوية، ونقل ذلك عنه حرفياً. فهل الغزالى فعلاً وصدقاً قد نقل عن المكى؟ وهل كتاب الإحياء صورة ولو محرّفة عن كتاب القوت؟

الواقع أن المقارنة بين الكتابين تظلم المكى والغزالى معاً، فالمكى متصوف عالم، والغزالى فليسوف متألّه، وكتابات المكى فى القوت تختلف عن مثيلتها فى الإحياء بحسب المنهج وشخصية كلٍ. ولو قارنا مثلاً باب العلم فى الكتابين سنجد الكثير من التشابه، كما سنعثر أيضاً على الكثير من المغايرة. ويعتمد المكى فى شروحه على ما قاله الصوفية الأوائل والصوفية من معاصريه، ويحيل الكثير من آرائه إلى أستاذيّه وإماميّه أبى محمد سهل وأبى الحسن بن سالم.

وبلغ عدد من ينسب إليهم من الصوفية أكثر من الثلاثمئة، ومنهم المشهورون كبشر الحارث، ومعروف الكرخى، وإبراهيم بن أدهم، والجنيد، والحسن البصرى، وإبراهيم الخواص، ويوسف بن أسباط. ومنهم المغمورون الذين أهملت ذكرهم كتب طبقات الصوفية، كالحلية للأصبهانى، والرسالة للقشيرى، مثل ابن أبى شبرمة، وفتح الموصلى، وابن الجرّاح، وابن ميسرة، وإبن مغفل وغيرهم.

وفى كتاب الإحياء فلسفة خالصة، مثل مقالته فى العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه، من باب العلم الذى نوّهنا عنه، والغزالى فيها يسوق رأيه الخالص الذى ربما اعتمد فيه على الدارج المعروف عند أهل الفلسفة، ولكنه لا يستنبط من المكى، ولا يتماثل معه فيها لا من قريب أو بعيد.

ومما يلفت النظر فى أمر الكتابين ـ القوت والإحياء ـ أنهما ووُجها معاً بالنقد الشديد ـ أو بالأحرى بالحسد الشديد ـ من جمهور الفقهاء، واتُهم المكى بالغلط. واعتبر ابن الجوزى مثلاً أن ترتيب المكى للصوفية أو المريدين ترتيبات فى المطاعم هو من تلبيس إبليس عليه، حيث قد حرّم عليهم الأكل وما تحتاج إليه النفس من المطعم والمشرب، على خلاف ما أحلّه الشرع وأمر به. وكذلك اتُهم الغزالى وأنكروا عليه حتى أمر الشيخ الإمام بن حرزهم بجمع ما ظفر به من نسخ الإحياء وهَمّ بإحراقها، بل إن الأمر زاد على ذلك أن أُدخلت فقرات على الإحياء تقطع بأن الغزالى ينقل كتبه عن الآخرين، ومن ذلك ما قيل بشأن كتابه «المستظهرى»، حيث يرد فى الجزء الثانى من الإحياء فقرة مدخولة تفيد أنه استنبط هذا الكتاب السابق من كتاب الباقلانى «**كشف الأسرار وهتك الأستار**». والحقيقة أنه برغم التشابه أيضاً بين الكتابين، حيث أن موضوعهما واحد، وهو الرد على أصناف الروافض من الباطنية، إلا أن الغزالى انفرد بأبواب لم يتطرق إليها الباقلانى، مثلما فعل فى الإحياء حيث انفرد أيضاً بأبواب لم يتطرق إليها صاحب كتاب القوت.

والرأى عندى أن الكتابين ـ القوت والإحياء ـ يتكاملان، والمكى قد جمع أقوال السلف والكثير من الأخبار والأمثال والحِكَم، ونفذ إلى سرائر دقّت على الأفهام، والغزالى مزج بين علمَى الظاهر والباطن، وبلغ فى ذلك حداً جعل النووى يقول كاد الإحياء أن يكون قرآناً.

وبالمثل فإن كتاب القوت لنبعٌ ثرّ وبحر زاخر، جاءت فيه المعانى فى أحسن سبك، حتى أن العلوم لو حدث أنْ كشطت، لأمكن استخراجها من جديد من القوت.

والقارئ للقوت والإحياء سوف يجد أنه مع كل قراءة ستظهر له أسرار وتبين له مفهومات. وشرح الكتاب والسنة يستوفيه كتابا القوت والإحياء، وهما يستوعبان معاً الطريقة الصوفية. وملازمة هذين الكتابين من محبة السلف وما كانوا عليه. والكتابان يجمعان بين الشريعة والطريقة والحقيقة فى الدنيا والآخرة، فمن أراد طريق الله، وطريق رسوله، وطريق العارفين بالله، وطريق العلماء من أهل الظاهر والباطن، فعليه بمطالعة الكتابين - القوت والإحياء.

★★★★

والغزالى نكاد نعرف عنه كل شئ، إلا المكّى فلا نكاد نعرف عنه إلا اليسير. ومن عيوب كتب التراجم للمشاهير أن أول كتاب يؤرخ فيه لأحد الأعلام فإن الكتب الأخرى اللاحقة عليه تتابعه على ما كتب. وإنه لشئ ملفت للنظر أن تتشابه ترجمة المكّى فى كتب **وفيات الأعيان وشذرات الذهبى وتاريخ بغداد والعبر ولسان الميزان**، فابن خلّكان يقول عن المكّى: إنه أبو طالب محمد بن على بن عطية الحارثى صاحب كتاب قوت القلوب، وكان رجلاً صالحاً مجتهداً فى العبادة، ويتكلم فى الجامع، وله المصنفات فى التوحيد، ولم يكن من أهل مكة، وإنما كان من أهل الجبل وسكن مكة فنُسب إليها. وكان يستعمل الرياضة كثيراً حتى قيل إنه هجر الطعام زماناً واقتصر على أكل الحشائش المباحة فاخضرّ جلده من كثرة تناولها. ولقى جماعة من المشايخ فى الحديث وعلم الطريق وأخذ عنهم، ودخل البصرة بعد وفاة أبى الحسن بن سالم فانتهى إلى مقالته، وقَدِمَ بغداد فوعظ الناس، وخلط فى كلامه فهجروه وتركوه.

وقال **محمد بن طاهر المقدسى** فى كتاب «الأنساب»: إن أبا طالب المكّىّ لما دخل بغداد واجتمع بالناس فى مجلس الوعظ، خلط فى كلامه، وحُفظ عنه أنه قال ليس على المخلوقين أضرّ من الخالق، فبدّعه الناس وهجروه، وامتنع من الكلام بعد ذلك، وله كتب فى التوحيد، وتوفى لست خلون من جمادى الآخرة من سنة ست وثمانين وثلثمائة ببغداد، ودفن بمقبرة الملكية بالجانب الشرقى، وقبره هناك مشهور ويزار رحمة الله عليه.

وقال ابن العماد الحنبلى: إن المكّى نشأ بمكة، وتزهّد وسلك ولقى الصوفية، وصنّف ووعظ، وكان صاحب رياضة ومجاهدة، وكان على نِحْلة أبى الحسن بن سالم البصرى شيخ السالمية، وروى عن علىّ بن أحمد المصيصى وغيره.

وقال **الحافظ أبو بكر البغدادى**: إن المكّى صنّف كتاباً سماه «قوت القلوب» على

لسان الصوفية، ذكر فيه أشياء منكرة مستبشعة فى الصفات، وحدّث عن علّى بن أحمد المصيصى وأبى بكر وغيرهما .. وامتنع عن الوعظ فى جمادى الآخرة من سنة ستٍ وثمانين وثلثمائة.

وقال **الإمام شهاب الدين العسقلانى** :إنه المكّى الزاهد صاحب قوت القلوب، سمع صحيح البخارى من أبى زيد المروزى، وله أربعون حديثاً أخرجها لنفسه، وكان على مذهب أبى الحسن بن سالم .

وذلك كل ما أمكننا جمعه عن المكّى، غير أننا استطعنا من خلال دراسة كتابه القوت الذى أعطاه عنوان «قوت القلوب فى معاملة المحبوب، ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد» – استطعنا أن نجمع الكثير حوله، فهو مثلاً من النقاد لعصره، ومن ذلك أنه ينقل عن ابن مسعود: لا تزالون بخير ما إذا حاك فى صدر أحدكم شئ وجد من يخبره به ويشفيه منه. وايمّ الله، أوشك أن لا تجدوا ذلك. ويعلق المكّى قائلاً: وقد حصّلنا فى زماننا هذا فى مثل ما خافه ابن مسعود، لأن مشكلة لو وردت فى معانى التوحيد، وشبهة لو اختلجت فى صدر مؤمن من معانى صفات الموّحد، وأردت كشف ذلك على حقيقة الأمر بما يشهده القلب الموّفق ويثلج له الصدر المشروح بالهدى، كان ذلك عزيزاً فى وقتك هذا، ولكنت فى استكشاف ذلك بين مبتدع ضال يخبرك برأيه عن هواه فيزيدك حيرة، أو متكلم يُفتيك بقصور علمه وبقياس معقوله على ظاهر الدين، وهذا شبهة فكيف تنكشف به شبهة، أو صوفى شاطح، تائه غالط، يجاوز بك الكتاب والسنة لا يباليهما، ويخالف بقوله الأئمة فيجيبك بالظن والوسواس والحدس والتمويه وسقط العلم والأحكام، وهؤلاء تائهون فى مفازة التيه لم يقفوا على الحُجة، قد غرقوا فى بحر التوحيد ويتكلمون فيما لم نُكلّف وما لم ينطق به السلف ....

والمكّى فى هذا الكتاب القوت ليس مجرد جامع للأقوال وإنما، هو مفكر له أصالته ورؤياه لعصره، وللفِرَق الدينية فيه. وما قيل فى المكّى من أنه قد غلط فى التوحيد حتى هجره الناس لم يستقم مع ما يذكره فى هذا المجال، فهو يقول: إن فرض التوحيد هو اعتقاد القلب أن الله تعالى واحد لا من عدد، وأول لا ثانى له، موجود لا شك فيه، وحاضر لا يغيب، وعالم لا يَجهل، وقادر لا يعجز، حّى لا يموت، قيّوم لا يغفل، حليم لا يسفه، وسميع بصير، مَلِكٌ لا يزول ملكه، قديم بغير وقت آخر، بغير حدٍ كائن، لم يزل ولا تزال الكينونة صفته لم يحدثها لنفسه، دائم أبد

الأبد لا نهاية لدوامه، والديمومة وصفه غير محدثها لنفسه، لا بداية لكونه ولا أولية لقدمه ولا غاية لأبديته، آخر في أوليته، أول في آخريته، أسماؤه وصفاته وأنواره غير مخلوقة له ولا منفصلة عنه، وأنه أمام كل شئ ووراء كل شئ، وفوق كل شئ، وأقرب إلى كل شئ من نفس الشئ، وأنه مع ذلك غير محل للأشياء، وأن الأشياء ليست محلاً له، وأنه على العرش استوى كيف شاء بلا تكييف ولا تشبيه، وأنه بكل شئ عليم، وعلى كل شئ قدير، وبكل شئ محيط، هو ذات منفرد بنفسه، متوحد بأوصافه، لا يمتزج ولا يزدوج إلى شئ، بائن من جميع خلقه، لا يحل الأجسام ولا تحله الأعراض، ليس في ذاته سواه، ولا في سواه من ذاته شئ. ليس في الخلق إلا الخلق، ولا في الذات إلا الخالق، فتبارك الله أحسن الخالقين، هو كما وصف نفسه وفوق ما وصفه خلقه. نَصِفُه بما ثبتت به الرواية وصحّت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه ليس كمثله شئ في كل شئ، بإثبات الأسماء والصفات، ونفي التمثيل والأدوات، وأنه سبحانه لم يزل موجوداً بصفاته كلها لم تزل له، وأن صفاته قائمة لا تزال كذلك، ولا يزال بها نهايةً ولا غاية، ولا تكييف ولا تشبيه، ولا تثنيه، بل بتوحيد هو متوحّد به، وتفريد هو منفرد به، لا يجرى عليه القياس، ولا يُمثل بالناس، ولا يُنعت بجنس، ولا يُلمس بحس ولا بجنس من شئ. وهو الأزلي الذي لم يزل، والأبدي الذي لم يحل ، أحدٌ صمدٌ لم يلد ولم يولد ، ومعنى ذلك لم يتولد هو من شيء ، ولم يتولد منه شيء ، ومثل ذلك لم يخلق من ذاته شيء ، كما لم تخلق ذاته من شيء ، سبحانه وتعالى عما يقوله الملحدون من ذلك علواً كبيراً .

هذا هو المكّى في توحيده لله تعالى، فكيف يُتهم بالغلط ويُنكر عليه حتى ليهجره سامعوه؟!! وإنما هو الحسد له، قد عانى منه الكثيرون، حتى لقد سُجِن مَن سُجِن، ونُكّل بمن نكّل به، وشُرِّد مَن شرد، وأُعدم من أُعدم بسببه. ومما يروى عن الجنيْد رضى الله عنه أنه لم يكن يتكلم قط في علم التوحيد إلا في قلب بيته، وقد غلّق الأبواب، وأخذ مفاتيحها يضعها تحت فخذه، ويقول: أتحبون أن يكذّب الناس أولياء الله تعالى وخاصته ويرمونهم بالزندقة؟ وكان سبب فعله ذلك تكلمهم فيه، فكان من بعد يستتر بالفقه إلى أن مات!

وكان الشيخ محيى الدين عربى يقول: من لم يُقم بقلبه التصديق لما يسمعه من كلام هذه الطائفة فلا يجالسهم، فإن مجالستهم من غير تصديق سمٌ قاتل. والملاحظ أن الكثير من كلام الصوفية لايتمشى ظاهره إلا على قواعد الفلاسفة، ومن ثم كان من الواجب على العاقل أن لا

يبادر إلى الإنكار عليهم بمجرد عزو ذلك الكلام إليهم، بل ينظر ويتأمل فى أدلتهم التى استندوا إليها، فما كل ما قاله الفلاسفة فى كتبهم باطل، وإنما كان التحذير من مطالعة كتبهم خوفاً من حصول شبهة، ولا سيما من قِبَل أهل الإنكار والدعاوى.

****

ويشتمل كتاب القوت على أخبار رأينا حذفها للإطالة ولأنها غير مألوفة، ومعلومات ربما نعرفها لأول مرة، فيذكر المكّى مؤرخاً للحسن البصرى وبدايات التصوف فى البصرة: أن الحسن كان مجلسه أحد مجالس الذكر التى قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم: مجلس الذكر أفضل من صلاة ألف ركعة. وكان الحسن يخلو مع إخوانه وأتباعه من النُسّاك والعُبّاد فى بيته، مثل مالك بن دينار، وثابت البنانى، وأيوب السختانى، ومحمد بن واسع، وفرقد السبخى، وعبد الواحد بن زيد فيقول: هاتوا انشروا النور! فيتكلم عليهم فى هذا العلم من علم اليقين، وفى خواطر القلوب ووسواس النفوس.

وينبه المكّى إلى أن مجلس الذكر الذى يعنيه ليس هو مجلس القصص، ولا يعنى به القُصّاص، لأنه رأى فى القصص بدعة، ولم يُقَص فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويؤرخ لظهور القصص بوقوع الفتنة فظهر القُصّاص، فلما دخل علىّ البصرة جعل يخرج القُصّاص من المسجد ويقول: لا يُقَصّ فى مسجدنا. حتى انتهى إلى الحسن وهو يتكلم، فاستمع إليه ثُم انصرف ولم يخرجه. وجاء ابن عمر إلى مجلسه من المسجد فوجد قاصاً يقص، فوّجه إليه صاحب الشرطة أنْ أخرجه من المسجد، فأخرجه. ويستنتج المكّى أنه لو كان القص من مجالس الذكر، والقصاص علماء، لما أخرجهم ابن عمر من المسجد.

ومن رأيه أن علماء الآخرة هم الصوفية عن حق، وأن يكون المرء صاحب حديث صوفياً وليس صوفياً صاحب حديث. وهو يأخذ ذلك من حالة معروف الكرخى، فقد كان الإمام أحمد بن حنبل وكذلك يحيى بن سعيد رضى الله عنهما، يختلفان إليه ولم يكن يحسن من العلم والسنن ما يحسنانه، فكانا يسألانه. ويستشهد المكّى بالخبر الذى يروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم سئل: كيف نصنع إذا جاء أمر لم نجده فى كتاب الله تعالى، ولا فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال سلوا الصالحين واجعلوه شورى بينهم، ولا تقضوا فيه أمراً دونهم. وفى حديث معاذ فإن جاءك ما ليس فى كتاب الله تعالى ولا فى سنة رسول الله؟ قال أقضى فيه بما قضى

الصالحون، فقال الحمد لله الذى وفق رسول رسوله، وفى بعضها أجتهد رأيى.

ويقول المكّى إن أول كتاب صنف فى الإسلام كتاب **ابن جريج فى الآثار**، وحروف من التفاسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس بمكة، ثم كتاب معمر بن راشد الصنعانى باليمن، جمع فيه سُنناً منشورة مبوّبة، ثم كتاب الموّطأ بالمدينة لمالك بن أنس فى الفقه، ثم جمع ابن عيينة كتاب **الجوامع** فى السنن والأبواب، وكتاب التفسير فى أحرف من علم القرآن، **وجامع** سفيان الثورى الكبير فى الفقه والأحاديث، فهذه أول ما صُنف ووضع من الكتب بعد وفاة سعيد بن المسيب وخيار التابعين، وبعد سنة عشرين أو أكثر ومائة من التاريخ.

**ومنهج المكّى** فى القوت يشرحه فيقول: إن جميع ما ذكره فيه من الأخبار عن النبى صلى الله عليه وسلم، ثم عن الصحابة وعن التابعين وتابعيهم، رسمه حفظاً، وساقه على المعنى إلا اليسير مما اتفق وجوده فى يديه، وقَرُب تناوله منه من الأخبار التى فيها طول، فإنه نقله من مواضعه، وما بعُد عليه فلم يفقهه ولم يشغل همته به، فما كان فيه من صواب وبيان وتثبت، فمن الله تعالى بحسن توفيقه وقوة تأييده، وما كان فيه من خطأ وعَجَل وهوى، فمنه بالسهو والغفلة، ومن .مل الشيطان بالعجلة والنسيان. وما يسوقه عن أصحاب علم القلوب من أحاديث صحيحة بسند ضعيف، إنما لأن لهم مذهبهم فى روايتها، والراوى قد لا يكون عند أصحابه من العلماء دون أصحاب الحديث ممن ضعّفه، وأهل القلوب فى روايتهم لها ليسوا متيقنين من باطلها، ولا يشهدون بروايتها إلا بما علموا، فطالما أن الأخبار الضعيفة لا تخالف الكتاب والسنة فلا يلزم ردّها، لأنه قد يكون فيها ما يدل عليها. وأصحاب علم القلوب يتعبدّون بحُسن الظن، ومنهيون عن الكثير من الظن، ومذمومون بسوء الظن. والتوصل إلى الحقيقة غير ممكن إلا عن طريق المعاينة، ولا سبيل إليها، فاضطروا إلى التقليد والتصديق بحسن الظن بالنَقَلة مع ما تسكن إليه قلوبهم ويرون أنه حق. وقد روى عن الإمام أحمد بن حنبل أن الحديث إذا لم ينافه كتاب أو سنة، وإن لم يشهدا له، فإنه إن لم يخرج تأويله عن إجماع الأمة فإنه يوجب القبول. ويقول المكّى إن الحديث الضعيف عنده آثر من الرأى والقياس، وهذا أيضاً مذهب الإمام أحمد بن حنبل. والحديث إذا تداوله عصران، أو رواه القرون الثلاثة، أو دار فى العصر الواحد فلم ينكره علماؤه، وكان مشهوراً لا ينكره الطبقة من المسلمين، احتمل ووقع به حجة وإن كان فى سنده قول، إلاّ ما خالف الكتاب والسنن الصحيحة أو إجماع الأمة أو ظهر كذب ناقليه بشهادة الصادقين من

الأئمة. وبرغم أن المكّى يكرر دائماً أنه على مذهب شيخه أبى محمد سهل، فإنه يؤكد أيضاً أنه يشايع الجنيد وأحمد بن حنبل. ويطرح المكّى رأيه بعد تمحيص الآراء الآخرين فيقول مثلاً ونحن لا نرى ذلك أو يقول والذى عندى فى ذلك، أو يقول وأرى .

ويكثر المكّى من الحكايات عن صوفية الإسرائيليين، ومن الأخذ من الكتب الإسرائيلية، فيقول «فى أخبار موسى عليه السلام»، أو «فى أخبار يعقوب عليه السلام»، أو «فى الخبر أن رجلاً من بنى إسرائيل». ويورد عن الحسن البصرى إلا أنه كثيراً ما يخالفه، فالحسن البصرى مثلاً فى مجال الخوف من الله عز وجل يخاف أن يقع بوصف الجبرية فى ترك المبالاة، وأن يجعله الله تعالى نكالاً لأصحابه وموعظة لأهل طبقته، فلما عوتب فى شدة حزنه قال الحسن ما يؤمننى أن يكون قد اطّلع علىّ فى بعض ما يكره فمقتنى فقال إذهب فلا غفُرت لك، فأنا أعمل فى غير معمل!! ويرد المكّى عليه بأن الخوف لا يكون لكثرة الذنوب، فلو كان كذلك لكنا أكثر خوفاً منه، وإنما يكون الخوف لصفاء القلب وشدة التعظيم لله تعالى.

وطريقة المكّى فى السرد عموماً طريقة جديدة، يعتمد فيها على تداعى الخواطر بخصوص الموضوع، فالشبيه يذكّر بشبيهه، ويكون الاستطراد على هذا المنوال، فالخوف فى مجاله يذكّره بمختلف استجابات طوائف الصوفية إزاءه، فيقول إن أكثر المخاوف كانت فى البصريين وأهل عبادان، فكان مذهبهم القدر والقول باللطف وتفويض المشيئة وتقديم الاستطاعة، ومنهم العمرية أصحاب عمرو، والعبادية شيعة عباد، والفوطية والعطائية أصحاب هشام الفوطى وابن عطاء الغزالى، ومنهم التيمية نفوا نصف القدر، ومنهم المنازلية أصحاب المنزلة بين المنزلتين والقول بمقدور من قادرين وفعل من فاعلين، فابتلوا بالاعتماد على الأسباب وبالنظر إلى أولوية الاكتساب، فحجبهم ذلك عن الله تعالى المقدِّر الوهاب، فهرب هؤلاء من الأمن والاغترار، فوقعوا فى أعظم منهما من القنوط والإياس، فصاروا فى كبائر المعاصى من خوفهم منها، فمثلهم مثل الخوارج خرجوا على الأئمة بالسيف لإنكار المنكر، فوقعوا فى أنكر المنكر من تكفير الأئمة وإنكارهم السلطان وتكفيرهم الأمة بالصغائر، وهذا من أبدع البدع، وهؤلاء كلاب أهل النار. ومثلهم أيضاً مثل المعتزلة هربوا من طريق المرجئة، أن الموحدين لا يدخلون النار، فحققوا الوعيد على الموحدين، وخلّدوا الفاسقين فى النار، فجاوزا حد المرجئة وزادوا عليهم، كما جاوزت المرجئة طريق أهل السنة وقصرت عنهم!

ولا يورد المكّى مجرد آراء الغير ولكنه قد يخالفهم وقد يوافقهم، وقد يعرض الرأيين ويكون له رأى ثالث، فقد فاضل مثلاً بين حال الغنى وحال الفقير للمريد، فأورد رأى أحمد بن عطاء، والرأى المخالف للخوّاص، ثم فضّل رأى الخوّاص، فقال وقد خالفه الخواص فوفق للصواب وكان فوقه فى المعرفة.

ولسوف نجد المكّى يكثر فى كتابه القوت من قول «ويقول الحسن» ويقصد به «الحسن البصرى»، فكلما فعل ذلك فاعلم أن المقصود به البصرى!

ومن دأب المكّى فى طرحه لرأيه أن يستوفى الآراء الأخرى، وكأنما هو يلخصها جميعاً أو يقول المستفاد منها، وطريقته فى ذلك أن يقول «واعلم أنى رأيت أن أُجمل كذا»، فمثلاً بعد أن يتحدث حديثاً مستفيضاً فى الزهد ويتناوله من جميع نواحيه ويستقصيه بكل أشكاله، وعند مختلف المذاهب، ولدى كل الأنبياء والمرسلين، والحكماء والصحابة والتابعين، والحواريين والأحبار والصوفية، يقول فى نهاية الفصل مقالته التى يبدأها .. واعلم أنى رأيت».

ويبدو المكّى فى هذا الكتاب الذى بين أيدينا متضلعاً فى مذهب سهل بن عبد الله يتصدى لأقواله بالشروح الكثيرة. ويعتبر كتاب القوت خير مرجع للطريقة السالمية، وفيه جُماع آراء هذه الطريقة. وكان سهل بن عبد الله بن يونس التسترى (٢٠٠ ـ ٢٨٣هـ) أحد أئمة الصوفية وعلمائهم المتكلمين فى علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال، وله كتاب فى تفسير القرآن، وكتاب رقائق المحبين. وطريقته فى التصوف أصولية سُنّية. يقول : أصولنا ستة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكل الحلال، وكفّ الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق» ويقول: ومن كان اقتداؤه بالنبى صلى الله عليه وسلم لم يكن فى قلبه اختيار لشئ من الأشياء، ولا يجول قلبه سوى ما أحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وعنده أن المقتدى لا اختيار له بالاستحسان، وأن عليه أن يلزم نفسه سبعة أشياء : أولها الأمر والنهى وهو الفرض، ثم الأدب، ثم الترهيب، ثم الترغيب، ثم السعة، فمن لم يلزم نفسه هذه السبعة ولم يعمل بها، لم يكمل إيمانه، ولم يتم عقله، ولم يتهنأ بحياته، ولم يجد لذة طاعة ربه».

وعنده أن عبادة الله على ثلاثة وجوه : على الخوف والرجاء والقرب. وأركان الدين أربعة : الصدق واليقين والرضا والحب. ويحيل المكّى إلى سهل فيقول «وكان مذهب سهل». وكثيراً ما

ينسب مذهبه (أى مذهب سهل) للبصريين، أو أنه ينسب البصريين إلى مذهبه، فيقول وهذا أيضاً مذهب البصريين. ولعله مما يميز طريقة المكّى أنه كثيراً ما يردّ المذاهب إلى أصحابها الحقيقيين. ومن الغريب أنه يورد بعض الأقوال لرابعة العدوية باعتبارها عن المسيح عليه السلام، ولربما لذلك كان اتجاه بعض المستشرقين إلى أن ينسب بعض التصوف للتأثيرات المسيحية، وأن يجد فى أقوال رابعة العدوية مشابهة للأقوال المسيحية، مما حدا بالبعض أن ينسب رابعة نفسها لأصول مسيحية.

وهو يورد أنه فى أخبار عيسى عليه السلام أنه مرّ على طائفة من العُبّاد قد احترقوا من العبادة كأنهم الشنان البالية، فقال من أنتم، فقالوا نحن عبّاد، قال لأى شئ تعبّدتم، قالوا خوّفنا الله من النار فخفنا منها، فقال حق على الله أن يؤمنكم ما خفتم ، ثم جاوزهم فمرّ بآخرين أشد عبادة منهم، فقال لأى شئ تعبّدتم، قالوا شوّقنا الله إلى الجنان وما أعدّ فيها لأوليائه فنحن نرجو ذلك، فقال حق على الله أن يعطيكم ما رجوتم، ثم جاوزهم فمرّ بآخرين يتعبدون، فقال ما أنتم، قالوا نحن المحبون لله لم نعبده خوفاً من نار ولا شوقاً إلى الجنة ولكن حباً له وتعظيماً لجلاله، فقال أنتم أولياء الله حقاً، معكم أُمرت أن أقيم، فأقام بين أظهرهم ويقول المكّى مؤرخاً للتأثير والتأثر فى مجال التصوف أنه عمّن روى عنهم هذا القول وأقيم هذا المقام جماعة من التابعين بإحسان منهم **أبو حازم المدنى ومعروف الكرخى ورابعة العدوية**، والأول قال إنى لأستحى من ربى أن أعبده خوفاً من العقاب فأكون مثل العبد السوء إنْ لم يُعط أجر عمله لم يعمل؛ ولكن أعبده محبة له، والثانى قيل فيه كان يعبد الله لا خوفاً من نار ولا شوقاً إلى الجنة، بل حباً له، والثالثة قالت ما عبّدت الله خوفاً من اللهْ فأكون كالأمَة السوء إنْ خافت عملت، ولا حباً للجنة فأكون كأمَة السوء إن أُعطيت عملت، ولكنى عبدته حباً له وشوقاً إليه. ويرد المكّى بعضاً من هذا المذهب فى التعبّد لله إلى المسيح عليه السلام - كما رأينا - وبعضه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يكون أحدكم كالعبد السوء إنْ خاف عمل، ولا كالأجير السوء إنْ لم يُعط أجراً لم يعمل.

ومن القضايا التى يثيرها المكّى فى القوت نسبة الأقوال والشعر لأصحابه حيث يورد فى باب المحبة أبياتاً من الشعر منسوبة إلى أبى سعيد الخرّاز فيردها إلى روايات عن أبى تراب النخشبي ويحيى بن معاذ، ويقول المكّى صراحة «إن الخراز أخذها منهما لأنهما أقدم منه». ومن

هذه القضايا أيضاً ما هو لغوى، ففى باب الفقر يدخل فى جدل مع اللغويين حول معنى الفقير والمسكين فيقول إن أهل الله مختلفون فيهما، ويورد أقوالاً لإبن السكّيت والأصمعى ويونس بن حبيب، واستدلالات أهل العراق من هذه التفسيرات، ثم يقدم تفسيره هو مدللاً عليه مما ورد فى الأخبار عن النبى والصحابة والصوفية والحكماء.

ومن طريف ما نذكره عن المكّى طالما أنه قد ورد ذكر العراق والعراقيين أنه كان شديد التحامل عليهم، ففى باب الرضا يذكر عن بغداد وأهلها أنهم جزوعون عن الصبر وكفورون بالنعمة، وقد روى عن عبد الله بن المبارك قال طفت الشرق والغرب فما رأيت بلداً شراً من بغداد، قيل وكيف ذلك يا أبا عبد الرحمن، قال هو بلد تُزدرى فيه النعمة وتُستصغر فيه المعصية. وقيل له لماّ قدم خراسان كيف رأيت الناس ببغداد، قال ما رأيت بها إلاّ شرطياً غضبان أو تاجراً لهفان أو قارئاً حيران. وقيل إنه كان يتصدق كل يوم بدينار لأجل مقامه ببغداد إلى أن يخرج إلى مكة. ويقول المكّى إنه قد بلغه أنه كان يتصدق بستة عشر ديناراً! وينسب المكّى إلى سفيان الثورى أنه قال عن العراق أنه بلد الجبابرة!

ويبدو أن هذه الأقوال وإن كانت تحاملاً إلا أنها تأتى منه كمحاولة لفلسفة عن المكان وعن الزمان، فبعض الأزمنة تتمايز عن أخرى كيوم الجمعة بالنسبة للمسلمين، أويوم عرفة، و يوم عرفة إذا وافق يوم جمعة، وشهر رمضان والشهور الحرم وهكذا. وكذلك فى الأماكن، وفى الخبر أن الله أول ما ينظر من الأرض الحَرَم وأهله، وأول من ينظر إليهم أهل المسجد الحرام. ويقول المكّى عن عبادان نقلاً عن أبى تراب النخشبى رأيت الثغور كلها تسجد لعبادان، ورأيت عبادان ساجدة لجدة لأنها خزانة الحرم وفُرضة أهل المسجد الحرام. ويروى عن سفيان الثورى يقول والله لا أدرى أى البلاد أسكن، فقيل له خراسان، قال مذاهب مختلفة وآراء فاسدة، وقيل الشام قال يشار إليك بالأصابع، وقيل له مكة قال تذيب الكيْس والبدن. ويروى المكّى عن عمر أنه قال لمولى له أين تسكن، قال العراق، قال ما تصنع هناك ـ بلغنى أنه ما من أحد سكن العراق إلا قُيض له قرين من البلاء. وقال ذَكَر كعب الأحبار العراق يوماً فقال فيه تسعة أعشار الشر، وفيه الداء العضال. ويقول المكّى إن أول فرقة مرقت من الدين واتّبعت غير سبيل المؤمنين كانت من البصرة، والفرقة الثانية كانت من المدائن، والثالثة من البصرة، والفرقة الرابعة من الكوفة، ثم افترقت كل فرقة ثماني عشرة فرقة، فتّمت اثنتين وسبعين فرقة، وكلها نَبَع بأرض العراق، ومنه

طلع قرن الشيطان وظهرت الفتن. ومَن سكن بلداً كثير المنكر ظاهر المعاصى، فكان منزعجاً فيه، غير مطمئن إليه، يرغب إلى الله تعالى فى إخراجه منه، وكان مضطراً للمقام فيه لعيلة ثقيلة أو قلة ذات يد، وعلى يقين من سلامة دينه، فإنه معذور عند الله. وفى تفسير قول الله تعالى ـ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ـ أنه إذا كنت فى بلد يعمل بالمعاصى فالواجب التحول منه إلى غيره. وتلك هى نظرية المكّى فى المكان. ومن الغريب أن المكّى ينسب إلى المصريين قتل عثمان، ففى معرض التاريخ للخوارج يقول المكّى هم أول قرن نبع من المبتدعين وأول بدعة ابتُدعت فى الإسلام، قالوا لا حُكم إلا لله ورأوا الخروج على الإمام، وكفّروا عثمان وصوّبوا قتل غوغاء المصريين له. وذلك أول تعبير أصادفه عن مصريين اشتركوا فى مقتل عثمان ولاحظ قوله «غوغاء» المصريين!!

وكتاب القوت ليس فى العبادات، وسيرى القارئ أن ما كتبه المكّى فيها هو فى فلسفة العبادات وليس فى فقهها، ففى الصوم مثلاً يتناول أدق خلجاته وخطراته، والصوم المعنىّ عنده هو صوم الخصوص وليس صوم العوام، ويتناول الفروق بين السائل والمحروم والقانع والمعتّر من زوايا نفسية محضة. وما يهتم الكتاب بتناوله هو قوت الأعمال. ويشرح المكّى طريقة الصوفية شرحاً وافياً، ويبين الفروق بين المدارس الصوفية الكبرى فى الطعام واللباس وغيره، ويصف إلى أدق التفاصيل اختلاف الصوفية البغداديين عن الصوفية البصريين، ويقارن بين الاثنين فيقول إن طريقة البغداديين أعلى وطريقة البصريين أسلم. ويتحدث فى الحِمْية الصوفية كأحكم ما يكون الحديث ويفصّل ذلك حتى أنه ليذكر أن الرغيف يتكون من ٣٦ لقمة، ويوزع اللقمات على مدار الساعة، فكل ثلاث لقمات لساعة، واليوم كله له رغيفان!!

وكانت للمكّى اجتهاداته برغم أن كتابه «القوت» من نوع الكتب الجامعة لمختلف الآراء، وهو من دعاة التوسط، ورأيه يتوسط كل المذاهب والآراء، واختياره دائماً للأفضل فيقول «وأستحب أن» أو «أكره أن». ورغم أنه كثير الاستطراد إلا إنه يصف طريقته فيقول إنها تتوخى الإيجاز، ويقول لم يكن قصدى جمع كل ما قيل فى كل فن، وإنما الإيجاز فى إيراده والاكتفاء بذكر الأقوال المستحسنة وما تعلق بها مما لابد منه.

ومن أهم فصول كتاب القوت الفصل الذى يعقده المكّى للأخوّة فى الله والقواعد والأسس التى بها يمكن أن تنصلح المجتمعات، والبناء التحتى للمجتمع الأمثل الذى ينادى به المكّى بناء

مادى قوامه توزيع الثروة والعلاقات الاقتصادية بين الأفراد، والبناء الفوقى الذى ينهض عليه، والذى يشمل العرف والعادات والتقاليد والقوانين والأخلاق والسياسة والتعاليم والفلسفات والمعارف، بناءً مثالى يحكى عنه المكّى فيقول: لم يكن أحد فى المجتمع الإسلامى السلفى يقول فى رحله «هذا لى وهذا لك» (يقصد ما فى الرَحْل من أدوات إنتاج أو استهلاك)، وكان كل من احتاج إلى شئ استعمله عن غير مؤامرة (أى احتيال)، والله سبحانه وتعالى يصف المؤمنين حقاً بذلك فى قوله تعالى - وأمْرُهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون، ويشرح المكّى الآية فيقول معنى أمرهم أى أمورهم فذكرها بصيغة الجمع لشئ واحد بينهم، وشورى أى مشاع غير مقسوم ولا يُستبد به، وأحدهم فيه سواء، ومما رزقناهم ينفقون أى كانوا خلطاء فى الأموال لا يميز بعضهم رَحْلَه من بعض، أى شركاء. ويبشر المكّى بمجتمع لا نقول إنه شيوعى ولكنه «شركة إسلامية» أو مجتمع شركات "socialistic" وليس «اشتراكياً» "Socialist" إذ المجتمع الاشتراكى كما حدثونا عنه منذ روبرت أوين (١٨٢٧م) ووليام جودوين مجتمع يوتوبى يتساوى فيه الناس فى الفرص وأمام القانون، واختلفوا فيه بصدد الدخول، وظهر اختلافهم فى صياغة شعار الاشتراكية «من كل حسب قدرته وإلى كل حسب احتياجاته» أو «وإلى كل حسب جهده أو حسب إنتاجه». واشتراكية أو بالأحرى اجتماعية المكّى بخلاف ذلك، لأن الفرد فيها يأخذ بقدر حاجته كمسلم يعى وجوده داخل الجماعة الإسلامية، وبحسب نصوص الشريعة والسنة، بصرف النظر عن جهده أو إنتاجه، وقد يكون جهده أكبر من الباقين وما يتقاضاه أقل منهم. ويطلق المكّى اسم المؤاخاة على هذا النظام، ويصف ذلك فيقول كان الحسن البصرى يدخل بيته فيجد إخوانه فيه يأكلون ما يجدون بغير إذن، وكان يُسَرّ لذلك ويقول هكذا كنا. ويقول المكّى عن أحد هذه التجمعات الإخائية: كان بيت سعيد بن أبى عروبة فيه الطعام معروضاً للناس ظاهراً لهم، فاللحم كان مسلوخاً مُصْلَقاً، والخبز موجود ظاهر. وكذلك كان يفعل بالثياب والأثاث. وكان جميع مافى منزله مسبلاً، فكل من دخل عليه من إخوانه إنْ شاء قطع من المسلوخ فشوى وطبخ، وإن شاء أكل من الخبز بما وجد من الأدم، ومن شاء لبس من الثياب ما شاء، فكان ذلك مشاعاً فى منزله لمن أراد تناوله. ويقول المكّى أيضاً: إنه فى مثل هذا المجتمع الإخائى كان بعضهم ينقطع فى منزل أخيه يفرده بمكان يقوم بكفايته ولا يبرح من منزله على الدوام.

وأساس هذا الإخاء الإشتراكى الذى يبشّر به المكّى الأخلاق والتربية الإسلامية والسُنة النبوية وسلوك الصحابة رضوان الله عليهم، فالفرد المسلم مأمور بالحركة فى الحياة حركة

تستوعب حاجاته وحاجات من يعولهم، وكذلك حاجات من لا يستطيعون الحركة أو لا يقدرون على الوفاء بما تقوم به حياتهم، وذلك هو الفرق بين الاشتراكية العلمانية أو العلمية واشتراكية الإسلام عند المكّى.

ومن السنة البذل للإخوان والمشاركة بينهم فى كل شئ، أو كما يقول الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: طعام الواحد يكفى الاثنين، وطعام الاثنين يكفى الأربعة، والأصل فى ذلك ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المسلم يأكل فى مَعًى واحد، والمنافق فى سبعة أمعاء.

وهذه الإخائية التى يتمثّلها المكّى فى كتابه «القوت» وينبه إليها عن الرسول صلى الله عليه وسلم نقلاً عن مجتمع المدينة الذى آخى فيه النبى عليه صلوات الله وسلامه بين المهاجرين والأنصار - أقول هذه الإخائية تسبق الاشتراكية الأخلاقية التى قال بها كنط بقرون. ومذهب كنط يعطى الأولوية للعلاقات الأخلاقية ولا يقر مقولات ماركس القائمة على صراع الطبقات والثورة الاجتماعية ودكتاتورية البروليتاريا، ويجعل من الأخلاق علماً موضوعه رفع التناقضات فى العلاقات الاجتماعية. ومقارنة المكّى وكنط ترفع من شأن المكّى فى هذه الخصوصية إلى السماكين بجميع المعايير، لأن كنط يقيم اشتراكيته الأخلاقية على مقولة إنسانية حيث يجعل شعاره «إعمل دائماً بحيث تعتبر الإنسانية سواء فى شخصك أو فى الآخرين غايةً وليست مجرد وسيلة». والمكّى يقيم إخائيته على الدين، ويرجع الأخلاق إلى الدين، ويردها إلى ناموس الله فى خلقه والكون، ولا يعتبر نفسه متحدثاً فيها من فراغ فلقد عايشها الرسول والصحابة أجمعون معيشة حقيقية وواقعية، بينما كنط كان حديثه فيها مجرد أمانى، وانتهى من مناقشته لميتافيزيقا الوجود إلى أن الدين لم يسبق الأخلاق ولم يحددها، وأن الأخلاق على العكس هى التى أدّت إلى الدين. واشتراكية كنط لذلك كان أساسها الأخلاق والفرد الأخلاقى باعتبار الأخلاق أساس الاجتماع، بينما، اشتراكية المكّى أساسها الدين والفرد العابد الذى يفعل فى الحياة بالنية، فالأعمال لُبّها النوايا، والأعمال التى تهمه هى أعمال القلوب، والإنسان المثالى فى الإسلام هو الرسول صلوات الله عليه وسلامه الذى وصفه الله بأنه على خُلُق عظيم. وكتاب المكّى أساساً فى المعاملة أى فى الأخلاق، وإنما هى الأخلاق التى أساسها تمثل المؤمن لمبدأ الخَلْق فى الوجود وهو المحبة، وتقوم على الإيمان بالله والتوكل عليه والتسليم له، والتقوى والورع

والزهد والتجرد، وكلها أساسيات اعتقادية. وطريقة المكّى طريقة اعتقادية إيمانية، وطريقة كنط عقلانية فلسفية، «والقوت» الذى يصفه المكّى هو «قوت القلوب»، بينما القوت الذى يتحدث فيه كنط هو «قوت العقول» الذى يصلح به التفكير العقلانى الفلسفى على مذهبه المثالى الذى يقوم على التصور الفكرى الترانسندنتالى، وأفكاره مصادرها الحس والعقل وليس فيها ذكر للنيّة.

ويتفوق المكّى كعالم نفس يهتم بالتحليل النفسى ويفرّق بين أدق الخواطر والوساوس والمشاعر والأحاسيس، وله كلام رهيف فى الفروق بين المداراة والمداهنة، والفراسة وسوء الظن، واليقظة والحسد، والعتاب والتوبيخ، والصداقة والأخوة، والمودة والمحبة، ويغوص فى المعانى وأضدادها، ويصل فى تحليل النفس إلى أبعد الأغوار.

والإخائيون أو الإخوان الذين يكتب عنهم المكّى ليسوا فقط مجتمع المدينة فى عهد الرسول وخلفائه، ولكنهم كل مجتمعات الإسلام إذا عادوا إلى الدين الحق وتعلموا على المشايخ الأجّلاء، وهم مجتمع وصفهم الله تعالى فقال: ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصه. ويحكى المكّى فى المؤاخاة عن أبى هريرة عندما سأله أحدهم أن يؤاخيه : أتدرى ما حق الإخاء؟ قال الرجل عرّفنى . قال أن لا تكون بدرهمك ودينارك أحق منى!! ويحكى المكّى عن علىّ بن الحسين رضى الله عنهما أنه سأل هل يدخل أحدكم يده فى كيس أخيه فيأخذ منه ما يريد؟ فهذه هى المؤاخاة. ويصل الأمر عند المكى أن يقول : إذا مات صديق الرجل فقد فقد عضواً من أعضائه!!!

وفى الفصل الخامس والأربعين يتحدث المكّى عن التوافق العائلى بين الأزواج ويغوص فى أعماق العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة كأى من علماء النفس المعاصرين، وكواحد من المتخصصين فى الطب النفسى، ويصف أدواء الزواج والخلافات العائلية ويتعرض لعلاجها، ويصنّف الأزواج والزوجات فى أنماط، وهى أول مرة فيما نعلم يُذكر فى باب النساء من يطلق عليهن المكّى الأنّانة والمنّانة والخنّانة والحدّاقة البرّاقة والشدّاقة. ويعّرف الأنانة مثلاً بإنها التى تكثر الأنين والتوجع والتشكى، والمنّانة هى التى تمن على زوجها. ويذكر أيضاً من أنماط النساء المختلعة والمباهية والعاهرة والناشز. والمختلعة مثلاً هى التى تطلب الخلع من زوجها أى الطلاق، وتهدده به باستمرار، والمباهية هى التى تدأب على الطلب لتباهى غيرها وتفتخر على نظائرها.

وينصح المكّى الأزواج بما ينصح به العلماء الكبار مثل ماسترز وجونسون وكثيرين غيرهما ممن كتبوا فى موضوع الجنس والزواج - ينصح الرجل فى الوطء ليتمهل على أهله وليتوقف

حتى تقضى هى نهمتها كمايقضى هو نهمته، فربما تأخر إنزال المرأة لما بعد إنزال الرجل فيكون ذلك كريهاً لها، فإن علم أنها سبقت بالشهوة لم يحتج إلى التوقف، وليس يخفى سبقها بالشهوة على فطن، وأوفق ما يكون الجماع بينهما إذا اتفقت الشهوتان منهما معاً، وأكثر ما يكون التباغض بين الزوجين لاختلافهما من طبع الإنزال أن يكون طبعه سابقاً لطبعها، ويحكى المكّى من سيرة السلف أنهم لم يكونوا يتأخرون عن المرأة حتى يستأمرها فى ذلك، وينبغى له أن يعلّمها، وهذه بعض التربية النفسية الجنسية فيما يخص الرجل والمرأة ويريد المكّى للمريد أن يحيط بها ويعمل بمقتضاها فى حياته مع أهل بيته.

والمهم فى كتاب «القوت» للمكّى أنه كتاب فى فلسفة الدين، وفيها يتحدث المكّى كثيراً عن سُنن السلف بقصد التزيين لها والحض عليها بعد أن يشرحها. ويحكى عمّا كان متبعاً من العادات والتقاليد فيقول وهذه سُنّة قد عفت ومن عمل بها فقد نعّشها، أو يقول وهذا طريق قد مات فمن قام به فقد أحياه، أو وهذا التفقد والبحث طريق قد مات فمن عمل به فقد أحياه، أو وهذه الطريقة قد جُهلت فمن عمل بها فقد أظهرها ، أو وهذا طريق قد مات أهله فمن سلكه فقد أحياهم، أو وهذه سيرة المتقدمين وطريق السابقين فمن سلكها لحق بهم وكان أحدهم. أى أن المكّى ينبه إلى سُنّة قد عفت وطريقة مات أهلها، فكأنه بإحيائها يحييهم أو يلحق بهم ويكون كأحدهم، وهذا هو ما يحبذه المكّى للمريد وهو درب السالكين إلى الله تعالى. ولقد قيل إن الإسلام كله آداب فمن لزم آدابه فقد بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيّعها فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يرجو القبول. والمكّى يرجو للمريد حسن آداب الظاهر والباطن، فلا ظاهر لمن لا باطن له، ولا باطن لمن لا ظاهر له، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول «لو خشع قلبه لخشعت جوارحه».

والمكّى قرآنى يدل على الداء والدواء، والداء هو الذنوب، والدواء الاستغفار، والإسلام هو اتبّاع الأخلاق السنية والتخلى عن الأخلاق الدنية، والمسلم دائم التصفية لنفسه وقلبه دوام افتقاره إلى مولاه، فبدوام الافتقار ينفى عن نفسه وقلبه الكدر، وكلما تحركت نفسه بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته الناقدة وفرّ منها إلى ربه، فبدوام تصفيته جمعيته وبحركة نفسه، تفرقته وكدره، فهو قائم بربه على قلبه، وقائم بقلبه على نفسه، والله تعالى يقول ـ كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ـ وهذه القوامية لله على النفس هى التحقق بالإيمان، ولابد للمؤمن من دوام

الحركة بدوام الافتقار ودوام الفرار وحُسن التفقد لمواقع إصابات النفس. والمكّى غايته من كتابه «القوت» أن يوقف المريد على هذا المعنى فيكون المتحقق بالله سبحانه، وكأن فلسفة المكّى يلخصها أنا أعبد الله فأنا موجود ـ إذ الوجود كل الوجود هو التعبد لله تعالى، فيصدق فيه قول القائل فى هذا النفر من البشر الذين يحيون بالعبادة لله -:

قـوم همـومهم بالله قد علقت فمـا لهـم هِمَمٌ تسـمو إلى أحـد

فمطلب القوم مولاهم وسيدهم يا حُسن مطلبهم للواحد الصمد

**عبد المنعم الحفنى**

★★★★

★★

★